إدوارد سعيد والثقافة العربية «ما بين عالمين»

الحلقة الثالثة

هشام علي

يذكر ادوارد سعيد هذا الشعور بالتحدي الذي تولّد عنده،حين قالت جولدا مانير،رئيسة وزراء إسرائيل،في عام 1969م :» لا توجد فلسطين ولا يوجد فلسطينيون « يقول إدوارد سعيد «لقد دفعني هذا القول،كما دفع غيري إلى التحدي غير التقليدي من أجل دحض أقوالها»

ويشير إدوارد سعيد إلى التحول الذي أخذ يبرز في فكره ونشاطه فالسياسي والوطني أخذ ينازع الأكاديمي ويزيح بعضاً من مساحته. وسوف نلاحظ لاحقاً ان التجربة الفكرية لادوارد سعيد سهدت انزياحات متعددة.«وكوني سمحت لنفسي تدريجياً أن أتبنى صوت الأكاديمي الأمريكي كوسيلة للتغلب على ماضيّ الصعب المشتت،بدأت أفكر وأكتب في ىن واحد مستخدماً النصفين المتناقضين لتجربتي كعربي وأمريكي.وقد بدأت هذه النزعة بعد عام 1967م،وبالرغم من صعوبتها كانت مثيرة. وقد أدى هذا التغيير فيما يتعلق بإحساسي بذاتي وباللغة التي استخدمتها، إدراكي انه في محاولة التأقلم مع طوارئ الحياة في بوتقة الولايات المتحدة كنت قد تقبلت - شئت أن أبيت – مبدأ الإلغاء الذي تحدث عنه أدورنو بشكل مميز (مينيما مورانيا)».

والـواقـع أن هـذا الإحـسـاس بالانتماء المـزدوج،إلى ثقافتين وإلى لغتين لم يكن وليد تلك القطيعة التي عاشها بعد حرب 1967م. فهذا الشعور بازدواجية الهوية والانتماء لازمه منذ الصغر،فهو يتحدث عن شعوره بعدم الراحة،تجاه لغته الأم العربية،واللغة الانكليزية التي يدرس بها في مدرسة فيكتوريا كوليج.» لم أكن أميّز ما هي لغتي الأولى ولم أكن اشعر بالراحة تجاه اللغتين مع أني كنت أحلم باللغتين.وفي كل مرة أقول جملة انجليزية أجد نفسي أرددها بالعربية والعكس صحيح».

كان يراوده على الدوام،ذلك الإحساس بأنه يقف في المكان الخطأ،كان ارتباطه بالمكان معقداً.فلسطيني في مصر- عربي يتحدث الانجليزية،يواجه يومياً أسئلة قاسية توحي بغياب الأصل المحدد. وأسوأ ما في الأمر،تلك العلاقة المتحاربة بين اللغتين الانجليزية والعربية،والتي كان مجبراً على العيش بينهما «كنت أعرف تاريخ انجلترا وجغرافية الهند أكثر مما كنت أعرف فيه عن تاريخ وجغرافية الوطن العربي» يقول إدوارد سعيد،ومع ذلك كان يدرك بأنه الغريب«الآخر غير الأوروبي» في داخل المدرسة. كان عليّ أن أعرف مكانتي وأن لا أطمح بأن أكون بريطانياً يوماً ما. والخط الفاصل ما بيننا وبينهم كان لغوياً وثقافياً وعنصرياً وعرقياً.

انتقل إدوارد سعيد بعد ذلك إلى الولايات المتحدة،حيث لم يتمكن من التصالح مع وضعه في مدرسة فيكتوريا، كان يعيش في حالة من الحرب الأهلية التي لا تنتهي.لذلك قرّر والده أن يرسله مع أخوانه إلى أبعد بقعة في الأرض.وكان إحساسه بالحرمان من البيئة اللغوية التي كان يعتمد عليها كبديل للعداء الانجلو ساكسوني الذي عانى منه في المدرسة الأمريكية الجديدة.

في أمريكا ازداد الإحساس بالعزلة وانخفضت روح المقاومة. أخذ إدوارد سعيد يتصالح مع وضعه الجديد،وقد كرّس جهده لامتلاك اللغة الانجليزية والادب والثقافة الانجليزية والأمريكية.

لم يستطع إدوارد سعيد أن يعيش معلقاً ما بين عالمين،لاسيما بعد لأن أيقظت هزيمة 1967م وعيه العربي وإحساسه المقاوم للهيمنة والظلم. وفي حين كان ادوارد يصف المثقف في المنفى بأنه «ذلك الذي لم يعد يستطيع العيش في البيت» بالمعنى التقليدي،أي بكل ما يعنيه من مشاعر الانتماء الاجتماعي والمصالح العائلية،وذلك مقابل امتلاك معرفة جديدة. وهو يرى أن أفضل اسلوب للحياة،بالنسبة للمثقف في المنفى،لكي لا يخون المعرفة،هو أن يعيش معلقاً. أي بعيداً عن أي التزام.

ربما كان إدوارد سعيد متناغماً مع هذه الحالة من عدم الانتماء في مرحلة ما قبل 1967م.

لقد تغير الموقف بعد ذلك.يعلّق إدوارد سعيد على مقولة أدورنو السابقة :«بالنسبة لي،لم يكن مكاني يوماً أن أعيش حياة معلقة لا اتبنى فيها موقفاً معيناً ولا يوجد فيها التزام بشيء ما،ولم اتوان يوماً عن اعلان انتمائي لقضية مرفوضة تماماً واحتفظت دائماً بحقي في الانتقاد».

ينبغي أن نشير هنا إلى أن القطيعة التي نتحدث عنها في مسار ادوارد سعيد،لم تكن قطيعة فكرية،كما قد يتبادر إلى الذهن.ولكنها مسألة تتعلق بإعلان الانتماء السياسي بوضوح إلى القضية الفلسطينية والفصل بين عمله الأكاديمي وبين عمله السياسي كمثقف ينخرط بقضايا وطنه.

ونلاحظ أن مشاعر الانشطار في هويته التي عبّر عنها في 1967م كانت موجودة ومتضمنة في كتابه الأول عن كونراد،وهو في الأساس رسالة الدكتوراه التي اعدها في وقت مبكر من بدايات الستينات. أن ما جذبه في كونراد هو ذلك الشعور بفقدان الوطن واللغة في المكان الجديد.»هذا الفقدان هو ما صوره كونراد بقسوة شديدة على انه أمر مؤلم وظالم ولا يمكن الشفاء منه أو تعويضه.ولذلك وجدت نفسي عبر السنين أقرأ وأكتب عن كونراد وكأنما هو قاعدة ثابتة لتجاربي التي مررت بها.ولسنوات طويلة وجدت نفسي أمر بنفس الأشياء من خلال عملي وحياتي».

ويشير إدوارد سعيد إلى ما يميز حالته عن كونراد.فجوزيف كونراد كان أوروبياً ترك موطنه الأصلي بولندا وأصبح انجليزياً. فالانتقال بالنسبة له كان نوعاً ما داخل نفس العالم.اما أنا فقد ولدت في القدس وعشت طفولتي المبكرة هناك. وقد انتهى به الترحال إلى أمريكا.كان شعور الشك وعدم الانتماء يقلقه دائماً وكان عليه مواجهة الأسئلة القاسية التي توحي بغياب الأصل.ولكن «أسوأ ما كان في حالتي – يقول سعيد – والذي تفاقم عبر السنين،العلاقة المتحاربة ما بين اللغتين الانجليزية والعربية وهو الشيء الذي لم يضطر كونراد أن يعاني منه، بما أن طريقه كانت من بولندا إلى انجلترا عبر فرنسا.وبالتالي كانت ضمن حدود أوروبا» بهذه العبارة يضع إدوارد سعيد يده على مسألة الهوية،العبور الثقافي بين الـقـارات.ادوارد سعيد المثقف الكوني وأستاذ الأدب المقارن،يعرف أهمية اللغة والثقافة في تكوين الهوية،التي تتخذ عنده طبيعة ديناميكية ومتعددة.فالهوية ليست مفهوماً ساكناً ومنفلتاً تمّ بناؤه في زمن ما،أنها بنية مفتوحة دائمة التكوين والتشكل بما يضيف إليها الإنسان والمجتمع من تجارب ومعارف وإبداع،ربما يكتسب المجتمع من ثقافات الآخرين وتجاربهم.ولهذا السبب،نراه يميّز حالة تنقل كونراد في بيئة ثقافية ولغوية متجانسة.بينما تحمل تجربته اختلافاً جوهرياً،لانتقاله من بيئة ثقافية ولغوية إلى بيئة أخرى مختلفة.وعلى الرغم مما حمله من تكوين ثقافي خاص،امتلاك اللغة الانجليزية والثقافة الغربية بشقيها الأوروبي والأمريكي ووصوله إلى أرفع المستويات في الفكر النقدي وإنتاج النظريات النقدية،إلاّ أنه يظل في جوهره ذلك الغريب الـذي يعيش «خارج المكان». ومما يزيد حالته تعقيداً شعوره بالانتماء إلى وطن مفقود.

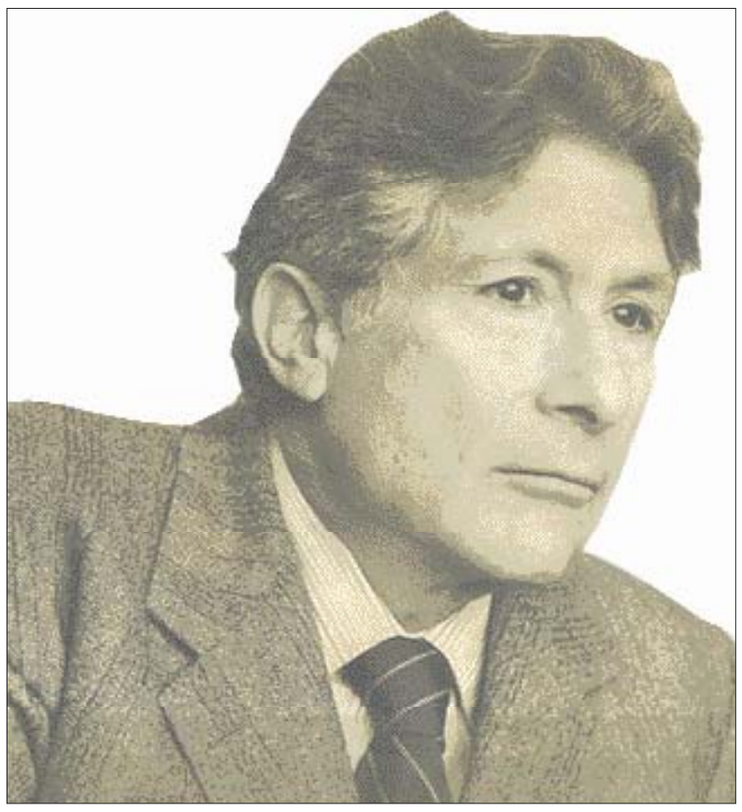

● إدوارد سعيد

إن مهمته كمثقف لا تتمثل في الحنين الرومانسي إلى الوطن الضائع،بل في إعادة تكوين الوطن وتشكيله تاريخياً وجغرافياً وثقافة.ولذا ظل السرد مشروعاً مؤجلاً في جدول أعماله.فهو يحلم بكتابة رواية،يحلم بالسرد الذي يعيد تكوين فلسطين،يجمع أشياءها المبعثرة،من صور وذكريات واماكن وتخيلات.يؤلف بلاداً بالسرد.هذه مقولة ادوارد سعيد التي اعاد تفصيلها الناقد الهندي هومي بابا في كتابه «الأمة والسرد» يذكر ادوارد سعيد في الثقافة والأمبريالية « أن القوميات هي سرديات لا أكثر :«في السرد الروائي،إن الأمم هي ذاتها سرديات ومرويات.وأن القوة على ممارسة السرد،أو على منع سرديات اخرى من ان تتكون وتبزغ،لكبيرة الأهمية بالنسبة للثقافة والامبريالية».

وفي كتاب « ما بعد السماء الأخيرة» يلح إدوارد سعيد على الترخيص بالسرد أي الحصول على فضاء نقدي وفكري يستطيع الفلسطيني أن يتمكن من خلاله، من إعادة سرد سيرته وتكرارها :لأن تاريخنا ممنوع، والسرديات نادرة،أي قصة الأصل،البيت، الوطن سرية. وعندما تظهر فهي متشظية. بعيدة ومشفّرة وبأشكال غاضبة. الحياة الفلسطينية مبعثرة لامتواصلة.. معلّمة دائماً بترتيبات مصطنعة ومفروضة لفضاء محدّد ومنتهك.

كان اعلان الانتماء لفلسطين أمـراً يشبه الأسطورة. هكذا يقول إدوارد سعيد، في بعض الأحيان «كنت ألاحظ أنني أصبحت مخلوقاً غريب الاطـوار، أو نوعاً غريباً من البشر» إن تحدي الهوية يمكن فهمه في حالة إدوارد سعيد كمفكر عاش في المابين، أو ضمن حدود عالمين متصارعين. ومن هنا بحثه الدائم هوية تبعده عن المنفى : كنت اعمل في جو سلبي جداً هو جو اللاوجود واللاتاريخ واللذان كان يجب علي أن أوضحهما بالرغم من الطريق المسدود والتشويه والأفكار.

وقد دفعني هذا في النهاية إلى أن أعيد النظر في مفهوم الكتابة واللغة اللذين حتى تلك اللحظة كنت أتعامل معهما كأمور تنبع من النص والموضوع – تاريخ الرواية على سبيل المثال أو السرد،تفكيره في النثر الأدبي – وأصبحت مهتماً أكثر الآن بكيفية تشكل الموضوع وكيفية تشكل اللغة أي الكتابة كوسيلة تعكس حقائق تخدم هدفاً أو آخر بشكل كبير.كان هذا عالم القوة والتمثيل الذي جاء نتيجة سلسلة من القرارات اتخذها كتاب وسياسيون وفلاسفة لتوحي أو تؤكد على حقيقة معينة وتمحو حقائق أخرى وجاءت اول محاولة لي في هذا المجال عام 1968 عندما كتبت مقالا قصيرا يدعى «صـورة العربي» وصفت فيه صورة العربي التي تم التلاعب بها أو تشويهها في الصحف وبعض كتابات المثقفين بطريقة تم التملص فيها من الحديث عن التاريخ والتجربة التي مررت بها أنا وآخرون مثلي»

نلاحظ ان ادوارد سعيد العائد من الشرق بعد حرب الأيـام الستة في 1967 يعيد اكتشاف الهوية والمكان ويقتحم العمل السياسي الذي يتركه» يسير بموازاة عمله الأكاديمي منفصلا عنه بطبيعة الحال لان الحياة الأكاديمية في نيويورك لم تكن تسمح بظهور خطاب مؤيد للقضية الفلسطينية في ذلك المحيط الذي تسيطر عليه الصهيونية.

ولعلنا بحاجة إلى تأمل عودة ادوارد سعيد إلى الشرق لمعرفة طبيعتها ومدى خصوصيتها واختلافها من النواحي التاريخية والفكرية والسياسية. فهذه المرحلة من حياة ادوارد سعيد وفكره تعيد إلى الذهن أسئلة الغرب وتجارب المثقفين العرب الذين اتجهوا غرباً في مواسم الهجرة إلى الشمال على اختلاف مراحلها التاريخية واختلاف التجارب الفكرية التي عبروا عنها أو وصفوها في دفاتر أسفارهم منذ رحلة رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي ومحمد عبده التي حملت اسئلة التقدم والتأخر وقضايا الأخلاق والتربية مروراً بطه حسين وأيامه بين ضفتي المتوسط التي زرعت شك ديكارت في بيئة الشعر الجاهلي ولغته وعقائده، إلى عصفور توفيق الحكيم القادم من الشرق إلى تجارب المثقفين العرب في (الحي اللاتيني) وتوزعهم بين العلم والجنس كما وصفه سهيل ادريس وغيرها من التجارب العديدة للعلاقة بين الشرق والغرب التي تكررت في السرد العربي وبلغت أعمق درجاتها على المستوى الفكري والمستوي السردي في رواية الطيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال» التي قام ادوارد سعيد بموضعتها في سياق التحرر الثقافي من الامبريالية والقدرة على تكوين خطاب سردي مولد للأمم والقوميات. يريد ادوارد سعيد وضع حد لمتاهة الرحلة إلى الغرب التي سادت في السرد الغربي. هذا هو معنى دراسة رواية الطيب صالح في كتابه الثقافة والامبريالية. وهذه دلالة السؤال الذي وجهه سماح إدريس حين زاره لاول مرة في مكتبه بنيويورك «دعاني إلى الدخول..دخلت وأنا اعتذر (...) كبس على الزر فانطلق لسانه بالعربية «آه يا ابن سهيل إدريـس؟ هل ستكتب رواية بعنوان مانهاتن شبيهة برواية أبيك الحي اللاتيني»

هذا السؤال يشير إلى ان ادوارد سعيد يبحث عن تجربة مختلفة، عن فكر مغاير لا يقف عند حبكة الهوية الثقافية والجنس. لقد تغير العالم واختلف الفكر والتجارب الإنسانية وربما ينبغي علينا ان ندرس عودة ادوارد سعيد إلى الشرق على أساس هذه التغيرات.

ولكن علينا قبل ذلـك ان نضع أمامنا تجربة عربية أخرى. الهجرات العربية إلى الأمريكيتين وادب المهجر الذي ظهر في مطلع القرن العشرين كانت هذه الهجرة نوعا من المنفى والذي غادروا شواطئ المتوسط وركبوا البحر الى الامريكيتين كانوا يحلمون بالعودة إلى بلدانهم بعد سنوات قليلة من المهجر الا ان اقامتهم تأبدت وتناسل اجيال منهم في بلاد المهجر. الأدباء العرب الذين ظهروا في المهجر حملوا في قلوبهم جمرة الحنين إلى الوطن وكانت الرومانسية الناشئة في الغرب تستجيب لذلك الشعور بالفقدان والحنين. تجلى ذلك في تجربة جبران خليل جبران ورفاقه من أصحاب الرابطة العلمية في شعر علي أبي شادي ونثر ميخائيل نعيمة وغيرهم من الأدبـاء الذين حملوا تأثيرات الرومانتيكية إلى الثقافة العربية.

وأسهموا في تفكيك الكتابة العربية وولادة نص عربي مختلف يحاكي الثقافة الغربية لكنهم عجزوا عن تأسيس كتابة مغايرة.

كيف نستطيع تصنيف تجربة ادوارد سعيد داخل المكان أو كيف يمكن تحليل فكر ادوارد سعيد العائد إلى الشرق؟

لقد عرضنا نماذج متعددة للمثقفين العرب في تجاربهم المختلفة مع الغرب، رحلات وهجرة ومنافي. وفي هذه التجارب كانت أسئلة الغرب تبرز ومعها تبرز اسئلة الذات والهوية، أسئلة المركز والهامش، أسئلة التقدم والتأخر. كانت النهضة أولى ثمار ذلك اللقاء مع الغرب في أواخر القرن التاسع عشر، هذه هي مرحلة الطهطاوي ومحمد عبده والأفغاني. وكانت إشكالية الأصالة والهوية غالبة وفي مرحلة ثانية يظهر طه حسين ودعوته للاتجاه غرباً. كانت أسئلة المستقبل واستحضار الثقافة الغربية وإنباتها داخـل الثقافة العربية هي الاتجاه الغالب. وهذه هي مرحلة النهضة الثانية إذا جاز القول، التي أفرزت لاحقا الاتجاهات التنويرية والعقلانية ولو على نحو خافت. وهذه المرحلة شهدت ايضاً الحركة الرومانتيكية في الأدب التي استطاعت ان تحطم البناء الكلاسيكي للشعر العربي، وفتحت الطريق امام ولادة الحداثة الأدبية التي سبقت حداثة الفكر والمجتمع. وفي كل هذه التجارب كان الغرب هو واضع الأسئلة وصائغ الأفكار والتيارات، أي كان تقليد الغرب هو السائد في الثقافة العربية الحديثة، وفي المقابل كان التمترس بالتراث والعودة إلى الأصـول هو الاتجاه السائد في أوساط التقليديين.

كيف يمكن تصنيف ادوارد سعيد في هذه التيارات الثقافية التي برزت على امتداد أكثر من مائة عام. هل يمكن ان نضع فكر إدوارد سعيد ضمن فكر النهضة العربية في تطوراته الزمنية المختلفة أم انه ينتمي إلى تجربة الحداثة العربية التي لم تتأصل فكرياً وفلسفياً وظلت حبيسة الخطاب الإبداعي وهل يجوز لنا ان نضع مفكراً يعتبر رائداً من رواد ما بعد الحداثة في الثقافة الغربية، ضمن تيار الحداثة العربية التي لا تزال تعاني من الانكسار والعجز.

ليس بمستغرب ان يثير حضور ادوارد سعيد في الثقافة العربية ذلك الجدل المحيّر،في أوساط الحداثيين والماركسيين العرب وان يتم استقباله من قبل الاصوليين والتقليديين كمفكر ناقد للغرب ومحاولتهم قولبه فكره في سياق التيار الأصولي على الرغم من كونه مفكراً وناقداً دنيوينا (علمانياً) وسوف نعود لمناقشة هذه المسالة لاحقا.

شجرٌ من الأبعاد

محمَّد المهدِّي

ما يفعلُ النسيانُ إلاّ فعلَهُ
وأقلُّ ما ينساه .. ينسى عقلَهُ
أتذكّر المعنى الكثيرَ, وأصطفي
للكائنات من الـوجـود أقلّهُ
فلعلّ كوناً من هناك يُجيدُ ما
معنى هناك..كما يكون..لعلّهُ
من أيِّ ناحيةٍ يجيءُ..كتابُهُ امـ
ـرأةٌ.. تقاسمُهُ القصيدةُ ظِلّهُ
لطريقِهِ بردُ الرّغيفِ.. لجوعهِ
شجنُ المسافةِ..يامتاهةُ: من لَهُ؟
شجرٌ من الأبعادِ,مكتئبُ الصدى
ومتاهةٌ هي لا تُبارحُ وصلَهُ
أيُّ القرابة منه, وهي لغيرهِ؟
هو في الحقيقةِ لم يُضيِّع خِلّهُ
هو وحدهُ..هو فردُ كلِّ جماعة
هو أُمّـةٌ.. أحـدٌ يُبعِّضُ كُلّهُ
وإذا مضى, فديانتان, وقبلةٌ
لا بـدّ أن تهدي بـهِ, وتُضِلّهُ
حجرٌ, وطائفةٌ تطوفُ, ونُقطةٌ
سوداءُ, تأخذُهُ.. تحلُّ محلّهُ
ولديه ما يكفي من الأسفار..لي
أن أقتفيْ أثـري بـهِ, وأدلّـهُ

إصدارات

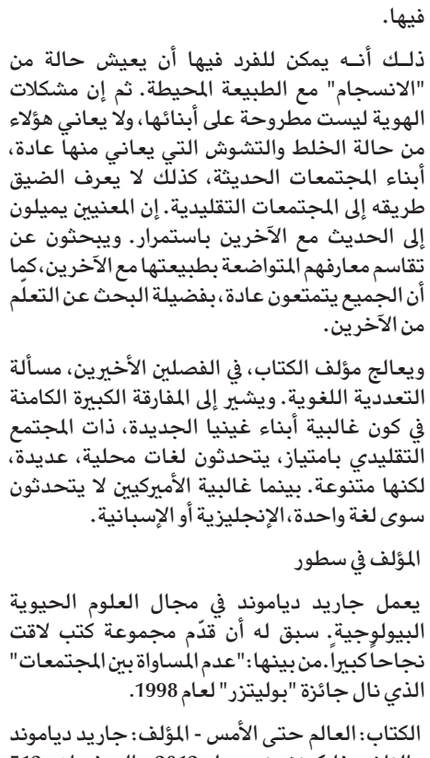

مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي

● صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت كتاب "مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي" للدكتور عبد العزيز الدوري.

هذا هو المجلّد الخامس من سلسلة الأعمال الكاملة للمؤرّخ العربي الدكتور عبد العزيز الدوري التي يقدّمها مركز دراسات الوحدة العربية في طبعتها الأولى الصادرة عنه.

وكان قد أصدر المجلّد الأوّل في حزيران/يونيو 2005 بعنوان «مقدّمة في تاريخ صدر الإسلام»، والمجلّد الثاني في أيلول/سبتمبر 2005 بعنوان «نشأة علم التاريخ عند العرب»، والمجلّد الثالث في تموز/يوليو 2006 بعنوان «العصر العباسي الأول ـ دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي»، والمجلّد الرابع بعنوان: «دراسات في العصور العباسية المتأخرة».

أمّا في المجلّد الذي بين أيدينا، « مقدّمة في التاريخ الاقتصادي العربي »» فيحاول المؤلّف إعطاء خلاصة تحليلية للتاريخ الاقتصادي العربي، تتلمس خطوطه الرئيسية من دون أن تنتهي إلى نظرية ما، ولكن مثل هذا العرض يؤدي بالضرورة إلى مجموعة من الآراء تبرز من خلاله. والنظرة الشاملة إلى التاريخ لا تخلو من تبسيط، أو تعميم يورث نقدا، وخصوصاً في نطاق واسع كهذا، ولكنها تبقى من أهم عناصر الأسلوب التاريخي إذا نظر إلى التاريخ مجرى متصلا، وإذا أريد له أن يسهم في توضيح رؤى المستقبل.» ويؤكد المؤلف أيضاً أنّ «فهم خبرات الأمة وتتبع سيرتها التاريخية، ضرورة أولية لوعي الحاضر وبداية لازمة للانطلاق إلى المستقبل. والتاريخ الاقتصادي لأمة ما، يمثل جانباً حيوياً من خبرتها التاريخية، وأساساً لفهم الكثير من آثارها«.

المجتمعات الإنسانية

● أجرى عالم الأحياء الأميركي جاريد دياموند، رحلات مكوكية، على مدى نصف قرن من الزمن، بين الولايات المتحدة الأميركية وغينيا الجديدة، هذا إلى جانب زياراته المتعددة لمناطق أخرى في العالم، في مقدمها: اندونيسيا. وجعل من دراسة المجتمعات الإنسانية موضوع اهتمامه الأول. وهو يكرّس كتابه الأخير، الذي يحمل عنوان "العالم حتى الأمس"، لدراسة أحد أكثر المجتمعات بدائية في غينيا الجديدة.

والمقصود بذلك الإثنية المعروفة باسم "داني"، التي توجد في منطقة "بابوزيا" في غينيا الجديدة. ذلك على أساس أن مثل هذه الشعوب البدائية، هي التي تمثل الماضي الإنساني البعيد لمجتمعات اليوم: الحديثة.

وفي البداية، يطرح المؤلف السؤال التالي: هل يمكن أن تساعد دراسة المجتمعات الإنسانية الأكثر بدائية، المجتمعات الحالية، على العيش بصورة أفضل؟

الخطوة الأولى التي يقوم بها في معرض الإجابة، تتمثل في عملية رسم صورة للماضي الإنساني، كما عاشه الإنسان البدائي، على مدى ملايين السنوات.

يوضح دياموند واقع أن المجتمعات المعاصرة اكتسبت سمات جديدة، يضعها تحت عنوان "الحداثة". وذلك في مختلف الميادين، من وسائل الاتصال، وإلى تعميم العلم والمعرفة، وكذا السواد الأعظم من مناطق العالم، بدرجات متفاوتة. لكن رغم الهوة السحيقة التي تفصلنا عن أجدادنا البدائيين، تبدو وكأنه لا يمكن ردمها. فإنه يمكن للملاحظ الدقيق، أن يجد الكثير من آثار نمط العيش في المجتمعات البدائية، لا تزال موجودة في المجتمعات التقليدية القائمة، أو التي كانت قائمة حتى فترة قريبة من الزمن.

ولا يتردد المؤلف في توجيه نوع من التحذير للمجتمعات الحديثة الاستهلاكية، حيال ركونها إلى النجاح المادي الذي يجعلها تتصرف بكثير من الصلف، ويمنعها من النظر إلى أصولها الأولى. هذا في الوقت الذي تواجه العديد من هذه المجتمعات، معضلات تبحث عن حلول.

وما يذكّر فيه هو أن المجتمعات التقليدية تبيّن لنا أن هناك خيارات أخرى ممكنة، وطرقاً أخرى للتوجه في المجالات الاجتماعية والبيئية، أي المجالات التي يبدو أن الإنسانية تواجه فيها أخطارا وتهديدات حقيقية. ومـن الميزات المهمة التي تتمتع بها المجتمعات التقليدية، طبقاً للمؤلف، أن العزلة ليست مشكلة فيها.

ذلـك أنـه يمكن للفرد فيها أن يعيش حالة من "الانسجام" مع الطبيعة المحيطة. ثم إن مشكلات الهوية ليست مطروحة على أبنائها، ولا يعاني هؤلاء من حالة الخلط والتشوش التي يعاني منها عادة، أبناء المجتمعات الحديثة، كذلك لا يعرف الضيق طريقه إلى المجتمعات التقليدية. إن المعنيين يميلون إلى الحديث مع الآخرين باستمرار. ويبحثون عن تقاسم معارفهم المتواضعة بطبيعتها مع الآخرين، كما أن الجميع يتمتعون عادة، بفضيلة البحث عن التعلّم من الآخرين.

ويعالج مؤلف الكتاب، في الفصلين الأخيرين، مسألة التعددية اللغوية. ويشير إلى المفارقة الكبيرة الكامنة في كون غالبية أبناء غينيا الجديدة، ذات المجتمع التقليدي بامتياز، يتحدثون لغات محلية، عديدة، لكنها متنوعة. بينما غالبية الأميركيين لا يتحدثون سوى لغة واحدة، الإنجليزية أو الإسبانية.

المؤلف في سطور

يعمل جاريد دياموند في مجال العلوم الحيوية البيولوجية. سبق له أن قدّم مجموعة كتب لاقت نجاحاً كبيراً. من بينها: "عدم المساواة بين المجتمعات" الذي نال جائزة "بوليتزر" لعام 1998.

الكتاب: العالم حتى الأمس - المؤلف: جاريد دياموند - الناشر: فايكينغ- نيويورك 2012 - الصفحات: 512 صفحة - القطع: المتوسط